

بين العقاد والرافعي

١ - صرخة مفزوع

٢ - ابن الرومي حياته من شعره

للاستاذ سيد قطب

- ١٠ -

نحن نمتدح لأخيذا صاحب «المصور» وناسر «على السفود» ونحس في أنفسنا استمداداً للعطف على صرخته في المدد الماضي من الرسالة !

نحن نمتدح ، فالظاهر أن الضربة التي ووجه بها كانت أجمل مما ينتظر وآلم مما يحتمل ، لأنها خلعت عنه لحيمة الوقار المستعار وشعار المدالة المصطنع ، وقد شاء أن يلوح بهما في عام ١٩٣٨ فبدأ للناس على حقيقته بحلل الأمر عاماً وبحرمه عاماً ، ويدور في التحليل والتحرير حول الأشخاص في الوقت الذي يعيب فيه نصرة الأشخاص !

هذه هي السألة يا صاحب المصور ، ونحن نمذك في المهارة التي أجبتنا بها ، ونمذك أنفسنا إذا وقفنا لحظة على أول درجات السلم في هذه المهارة ، لترتفع بعدها إلى مستوانا ، ونأخذ في القضية الأولى التي تهتم القراء

ونحن حين نمتدح إليك عن توجيه تلك الضربة ، نمتدح لأنفسنا عن احترامنا لك إلى هذا الحد الذي أوجب البطر ، ولو استطننا من أول الأمر أن نهبط إلى المستوي الذي هبطت إليه في كلتك الأخيرة لتغير وجه المسألة !

أنت ياسيدي - أولاً - لا تفهم الكلام ، ومن هنا كان تفسيرك للجملة التي أقول فيها :

« وأنتا من أخلص تلاميذ مدرسة هذا الكاتب لطريقته ، وأشد الناس فهماً لها ، واقتناعاً بها ، ونسجاً على منوالها .

ففهمت منها أن الذي يقول ذلك يكون « طبعاً ثانية » للمقاد

وهنا كلام تقوله للناس ، وكلام تقوله لك :

قلت : « يسمونه ماذا ؟ »

قال : « أنظر في حتى أسأل سيد قطب فقد نسيت ... »
وحسب سيد قطب أنه جاء بجديد حين جاء بما سماه « استيفاء الأشكال » ، ونسى ما سماه به علماء البديع منذ كان ابن المعتز ؛ ثم نسي ثانية فسماه عيباً لأنه سمع العقاد مرة يعيب شاعراً بالتزام محسنات البديع ...

ولكنه مع ذلك (إحصائي) في اللغة التي نعب بها ...

أما بعد فهذا شيء من أشياء تفرق بين مذهبين سماهما الأستاذ قطب ؛ وما كان لي أن أعني بالحديث عنهما إلا لأنبه إلى وجوب « استيفاء الوسائل » قبل أن ينتدب للنقد ؛ وما كان لي أن أعني بتنبهه إلى ذلك لولا على بأن ذلك يفيد ويجدى عليه ، وبعبته على فهم ما يكتب أهل الأدب فلا يتورط فيما تورط من الحديث عن فصائل ذات الظفر والناص فيسيء إلى نفسه وإلى صحابته !

وليس ينبغي عن استيفاء هذه الوسائل أن يدعى ويستطيل ويبالغ في الإعجاب بنفسه ليكون أديباً وفادراً له مكان ملحوظ ومنزل صرموق

وإني على ما ساءني من صديق لأرجو أن يقبل نصحي خالصاً فهو فيكف عما هو فيه ؛ فلقد كشف بهذا الذي يكتب عن أشياء في نفسه لم يكن يعرفها إلا الخاصة من أصحابه . ولقد جلا على القراء كل ما يستطيع أن يجلو من ألفاظ « الطرافة والحبوبة ، والسموق ، ولغات القهن ، والاستنراق » مما يجمل وراء كل بيت فارغ يحاول أن ينثره من شعر العقاد ليثبت له ما ليس فيه ؛ وقد تترك كل ما في كنياته من ألفاظ « الجود ، والاستطلاق ، وضيق الفهم » مما يحاول أن يرمى به كل من يمرض له من مناظره .

فإن سمع أراحنا وأراح نفسه ، وإلا فقد علمت وعلم القراء ما يدفعه إلى هذه المحاولات ؛ فإني حاجة بعد إلى مناقشته والرد عليه ؛ ولقد أكرمت من قبل فسكت عنه حفاظاً عليه وحرصاً على مودته ، وإني لأكرمه وأكرم نفسي من بعد بالسكوت عنه حتى يفرغ ؛ لعل في ذلك شفاء أو وقاء أو قضاء لحاجة نفسه والسلام عليه

« شبا »

محمد سعيد الصريانه

وقل يامولانا : إنك تحقد على المقاد حقد ادفيننا لا سبب له — إذ ليس بيننا منافسة على أدب ولا موهبة فنية — وأنت لهذا ترحب بشتائم الرافعي له وتطبعها وتروج لها وتسميها علواً عن الشخصيات . وأما حين يقوم « أديب » مثل « سيد قطب » ليكشف عن شناعة هذه الشتائم ، وليشرح بعض زواحي أدب المقاد بالقدر الذي تتسع له مجلة ، فانك تألم وتثور حفيفتك قسمي هذا الشرح وذلك الرد مناصرة للشخصيات ؟

قلها يامولانا واسترح . أراحك الله

قلها ولا تخش « سديك » المقاد كما عبرت عن العلاقة بيننا قبل العداء الأخير ، وأنت تتخاذل وتتضاءل وتدخل بعضك في بعضك ، وتدعي صداقة الرجل الذي ثلبته وشتمته ، وسهدت لشتمه بأحق الوسائل .

قلها . ورزقك على الله !!

أما سيد قطب . فسمه أديباً . سمه باسمه مجرداً . فسيظل هو هو الذي أسقط عنك لطيفك المستمارة ، وأثارك كل هذه الثورة وكشف للناس عن خبيثة نفسك ، وحقيقة آرائك ، ثم هاهو ذا الآن يتحنن رجولتك التي لا تثبت على رأي ، ولا تواجه الخصوم و « الأصدقاء » بما يقابل به الرجال الرجال . أما أنك لم تفهم ما كتبت ، فإن الروي يقول في هذا كلاماً أحبك عليه إن كانت لك دراية به !

وقل بهذا ما تشاء ، فلن أهبط مرة أخرى ، ولن أجرف « الرسالة » ولا قراءها إلى حيث تأبيناك قليلاً في لغة الكلام

أما كلتي اليوم عن المقاد ، فمن كتابه « ابن الروي . حياته من شعره » وإنما اخترت هذا الكتاب بالذات لأمر :

الرول : ما يدعيه خصوم المقاد من أن الصحافة تساعده ، وتشهر مؤلفاته ولا تقبل مقالات النقد التي يكتبها نقاده

والثاني : أن هذا الكتاب مظهر من مظاهر عبقرية المقاد الفنان والناقد . والبصير بالطباع والفنون

والثالث : أن فيه تصحيحاً لكثير من النظرات الفنية وشرحاً لكثير مما تحدث عنه من « أدب الطبع »

فإذا كتب في الصحف عن هذا الكتاب الفريد ؟

فأما كلتنا لمن يفهمون فإن الاخلاص لطريقة في الأدب والانتفاع بذهب خاص ، والنسج على متوال مدرسة معينة ، لا يعني تقليد شخص معين فقد ينشأ إمام وينشئ له مدرسة ، ويكون لهذه المدرسة تلاميذ ، ثم يكون لكل تقليد من هؤلاء طابعه الشخصي ومميزاته الذاتية ، ولا سيما إذا كانت هذه المدرسة هي مدرسة المقاد التي تقوم في أساسها على الدعوة إلى أدب « الشخصية » وتنكر التقليد وتشتط في إنكاره . فمن يخلص لطريقة هذه المدرسة ، فأما يخلص للاستقلال و « الخصوص » والتفlect من القيود والتقليد

وأما كلتنا لك ، فنحن نسلم أننا « طيبة ثانية » من المقاد ، فإذا تكون أنت ؟ . إننا نقول لك : كن أنت — إن استطعت — طيبة ثانية من المقاد أو أي فنان سواء ، أو كن — على حد تعبيرك للؤدب — الطيبة التي تركها في الرمل قدم المقاد تكن خيراً مما أنت الآن عشرات المرات !

وأنت ياسيدي — ثانياً — لا تحترم نفسك . فلقد كنت تقول يوم نشرت كتاب « على السفود » إنك تريد به « مثالا يحتذى به » الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولهم من عبادة الأشخاص ووثنية الصحافة في عهد البائد . فكانت مسألة نصره الأشخاص يوم ذاك — على ما تدعى — بميدة عن غرضك ، بل كنت ممن يقاومونها وينشرون هذه الكتب « الساقطة » لديها ثم ها أنت ذا الآن تقول إنك كنت وقتها تناصر شخصاً وأنت تبت مما عملت : « سقت تقدي مساق من لا يرى نفسه مما تناول ذلك النقد من رأي أو اتجاه . فلم أخرج ذاتي من مجال النقد الذي سقت ، معترفاً بأن ذلك رجوع إلى الحق ، واطمئنان إلى اتجاه جديد » وتعني بهذا أنك — إذن — ممن كانوا يتناصرون الأشخاص على الأشخاص ، بينما كنت يومها تبرا من ذلك .

قلها يامولانا كلمة صريحة أنت وأمثالك ممن لا يجدون في أنفسهم الشجاعة الكافية لمواجهة من يريدون مواجهته ، فيلقون ويدورون ، ويتخذون طرائق المراءاة في الدفاع والمجوم . قل : إنه ما دامت الشتائم توجه إلى المقاد فهي حينئذ نصره مذهب على مذهب ؟ أما حين تكون مدافعة ورداً لهذه الشتائم ، فهي — إذن — نصره أشخاص على أشخاص !

إنها بضع كلمات بين ثنايا إعلان ، أو قد كالتشائم . وهي في مجموعها لا تساوي ما يكتبه مؤلف صغير لأديب فائىء .
والحقيقة أن ذلك نصيب كتب المقاد كلها من الصحف ،
فاذا استثنينا « وحى الأربعين » المركبة التي دارت حوله وجدنا ما يشبه التعمد في إدارات الصحف للسكرتير عن كتب المقاد .
وقد طالما سمعت أصدقاءه يشكون لأن مقالاتهم عنه دفنت في مكاتب رؤساء التحرير !

وتلك ضريبة المنظمة التي يسدها المقاد !

وإنه لمن المفزع أن يعتقد الإنسان موازنة بين كتاب ابن الرومي وصداه في الصحف المصرية ، بين ضخامة الإنتاج وضآلة الاستعداد بقوله حتى ليحس أنما ألقى به في مونة نأهة لحياته فيها ولا إحساس . لا تستطيع إلا البقرة دون سواها من المواهب الإنسانية أن تخرج هذا المؤلف على هذا النحو

ولكي نعرف معنى هذا المقال يجب أن نستعرض « ابن الرومي » قبل هذا الكتاب وبعده ، ثم نستعرض فهم الأدب والحياة ، وفهم الفنون والطبائع قبل صدوره وبعده

فاذا كان ابن الرومي قبل كتاب المقاد عنه ؟

إنه كان بضعة أخبار متناثرة في ثنايا بعض كتب الأدب والتاريخ القديمة أغلبها عن طيرته وتشاؤمه ، وأقلها عن حياته ومعاشه . بضعة أخبار ضئيلة هي كما قال عنها الكاتب العظيم : « ومثلنا في ذلك كتل المتقين في المحفورات ، إذ يمترون بعض المظالم المهمة من جسم مدثور فهم يقيسون المفقود على الموجود ، ويمسكون بما وجدوه على الضياع ، ولو لم يكن به قوام »

وماذا صار بعد كتاب المقاد ؟

إنه صار إنساناً حياً ، نراه ونأنس به ، ونذكره خفياً ضميره وخوارج نفسه ، ونعرف حركاته وسكناته ، ومن ورائها أسبابها وبواعثها ، ولم تعد تخفى علينا ملامحه بين الملامح الكثيرة

وليس هذا بالشيء القليل ، ولا بالميسور لكل كاتب . ولكنه ليس الكسب الوحيد الذي نخرج به ، فقد عرفنا شكل خلقته بحاسنها وعيوبها ، وعرفنا أخباره وسيرته في لبابها ، وعشنا منه في داره ، وراقبناه في غدواته وروحاته ، وعلنا أسفاره ورحلاته ، وشاهدنا ما حدث له من خير وشر ، وما لاقاه من نعم وجحيم

ولم نعرف هذا وذلك وحدهما ، فقد تصورنا في لمحات سريعة صورة العصر الذي كان يعيش فيه ، بل عشنا في صميم هذا العصر بضع ساعات ، ولقينا شخصيات هذا المجتمع ، وفهمنا طباعهم الغالبة ، وسياسهم الظاهرة والباطنة ، وكدنا نكابذ ما كانوا يكابدون من تقلب الصروف ، وألغيب السياسة ، وأعاصير الانقلابات ، وتيارات الدسائس ... إلى آخر ما يعرفه المطلع البصير من مجتمع يعيش فيه فعلاً ، ويترج بين أهله وعشيرته

وما تستطيع غير البقرة أن تنفخ الحياة في المظالم النخرة بعد أن تكسوها لحماً وتغلفها دماً ، وتنفت فيها من الخواج والخواطر ما يقسمها حكاماً وفكرأ . وما تستطيع غير البقرة أن تنفخ في ميت المصور روحاً ، وتبعث هوامد السنين حية تتحرك وتغرر صرماً في الفلك ودورات النجوم من جديد

ولكن هذه القدرة الخالقة ، لم تقف عند هذا الحد ، ولم يكن ابن الرومي ولا حياته ، ولا فنونه ومزايده ، هي التي أفادت من هذه القدرة حياة ... بل لم يكن هذا إلا أقل ما في الكتاب من مزايده

وإنما الزينة الكبرى — في نظرنا — هي البيان العجيب للفن والحياة والطبائع الإنسانية ، وشرح البقرة الفنية وحدود النظر للأدب نظرة صحيحة ، وتصحيح كثير من الأغلاط الشائعة في ذلك قديماً وحديثاً . بحيث تصلح فصوله أن تكون ديواناً للنقد البصير الحصيف في الأدب العربي ، ومقوماً للطبائع والأذهان والافهام ، لمن يجد في نفسه استعداداً للإفادة

اسمعه يتحدث عن « عبادة الحياة » في أدب ابن الرومي :

« حب الحياة خليفة نادرة ، وإن ظن أنها أعم شيء بين الناس وعامة الأحياء ، فليس الحب — سواء حب حياة ، أو حب شيء من أشتائها — سهلاً رخيصاً يطلع فيه كل من يريد . فن الناس من يحب الحياة وكأنه مسوق إلى حبها ، ومنهم من يحبها كأنه مأجور على عملها ، ومنهم من يحبها كأنما يحب شيئاً غريباً عنه ؛ ومنهم من يحبها كما « يحب » الحيوان الأعمى ما هو فيه ؛ ومنهم من يحبها حب العاشق الذي يختار معشوقه ، أو يستوى عنده الحب على القهر والحب على الشبهة ، لأنه يريد ما يقهر عليه

والهواء . كذلك تهيج الساعمة في المروج وكذلك تهتف الضفدع في الليلة القمر .

وقد يمنحها الشاعر حياة من عنده ، أو من عند الخرافات والأساطير ، فإذا هي حياة بغيضة لا تصلح للتألف والتناجاة ، ولا يصدر عنها إلا الفزع والاحجام ، ولا تقوم بينه وبينها إلا الحواجز والمداوات .

أما الطبيعة التي تحب وتناجي ، ويتم التألف بين الشاعر وبينها عن ثروة غزيرة من الشعر والشعور فهي طبيعة الحور الخائفات في الهواء ، والمرائس السابحات بين الأمواج ، والمذاري الراقصات في عيد الربيع ، والجنيات الهامسات في رفرقة النسيم ورقرة القدير وحنين الصدى وحفيف الأغصان ، أو إن شئت فقل : إنها هي الطبيعة العاصرة بما في البروق والرعود والسموات والأعماق من بطولة وعظمة ونضال جياش بالغضب الظافر والسطوة المجيدة والخطر اللئيم والشجاعة التي تقدم ولا تنحجم وترجو ولا تخاف ، أو إن شئت فقل : إنها هي الطبيعة التي تبت الاغراء في كل شيء حتى ليحفر السراح لجة البحار مخافة أن تسهويه بنات الماء من وراء زرقة الأمواج ، فينب إلى أحضانها وكأنما يثب إلى أحضان عروس طال بها عهد الغياب

فمل هذا النحو تتجلى الطبيعة للعبقريّة التي تحبها وتمنحها الحياة فليست هي دمية ولا حلية ، وليست هي مروحة للهواء ولا مجلسا للمنادمة ، ولكنها قلب نابض وحياة شاملة ونفس تحف إليها وتأنس بها ، وذات تساجلها المطف وتباجلها المودة ، ثم هي عمار لاخواء فيه ، وأسرة لا تبرح منها في حضرة قريب بتناجيك وتناجيه ، ويماطيك الاخلاص وتماطيه

وقد كان ابن الرومي يحب الطبيعة على هذا النحو ويستروح من محاسنها نفساً تصبى الناظر إليها وتتبرج له « تبرج الأنثى تصدت للذكر » ويرى وراء هذه الزينة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تملق بها العفة والشهوة تملقها بالمأطفة الانسانية الساعرة »

هكذا يتحدث المقاد عن « حب الطبيعة » بالطاقة التي تحدث بها عن « حب الحياة » والشرح الوافي الذي تجده هناك وليس من المصادقات أن يكون المقاد نفسه من محبي الطبيعة

ويأتي أن يفرض للفراق وجوداً ، أو يتوقع لهواء تغيرا ، فهو سعيد بأن يحب ، وأن يسمح له بأن يحب ؛ وهو يحب الحياة لأنه حي لا موت فيه ، ولا عمل لكل حاسة في نفسه إلا أن تحس ونحيا ، وتستجد إحساساً وحياة ، ولا تشبع من الاحساس والحياة . وهكذا كان ابن الرومي يعبد الحياة عبادة لا يبتنى عليها أجراً غير ما يبتنيه خلص العابدين . فكان حياً كله لا مكان فيه للموت إلا الخوف منه والتفكير فيه »

وإنك لتقرأ هذا فتعجب لانتباه المقاد لكل ألوان « حب الحياة » وفهمه لأصحاب هذه الألوان وطبائهم ، وتعرف أن ذلك وليد إيمان اطلاق وملاحظة للنفس والآداب ، ولكنك تخلق أن تقدر وراء الاطلاع والملاحظة طبيعة فائقة مستمدة للنفاد في اطلاعها وملاحظاتها ، وفي تقييد ما تلاحظه ، وطريقة تقييده كذلك

وما التفت المقاد إلى هذا كله إلا لأنه في خلة حب الحياة كابن الرومي ، مع الفرق بين طبيعته العاصرة ، وطبيعة ابن الرومي المتواجة . نعم هذا سر التفاته للحياة ومحبتها وطرائق حبهم وطبيعتها . ودواوينه فائضة بدلائل هذا الحب بل العبادة للحياة ثم يتحدث عن « حب الطبيعة » بمناسبة حب الشاعر القديم لها :

« وصف الطبيعة شمراء كثيرون ، ولم يمنحها الحياة إلا قليلون ! أما الذين منحوها حياة نجها ونجبتا ، ونمطف عليها وتمطف علينا ، وتناجينا وتناجينا ، فأقل من هؤلاء القليلين .

وذاك أن الشاعر قد يؤخذ بأجرها وأيضها وأسفرها وأخضرها ، ويقف بما فيها من الزراكس والأفانين ، ثم لا يمدو بذلك أن يمدح شيئاً قد يجد مثله في ألوان الحلى وأصباغ الطنانس وتقوش الجدران . أو نحن نمخطو وراء ذلك خطوة فنقول : إنه لا يمدو بذلك أن ينظر إلى دمية فائقة ، يروقه منها وجه مليح ، وقوام ممشوق وحسن مغاض على الجوارح والأوصال ولكنه لا يتطلع منها إلى عطف ، ولا يفتش فيها عن طوية .

وقد يستريح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل ، ومهاد وثير ، وهواء بليل ، وراحة من عناء البيت وضجة المدينة ، فلا يمدو بذلك أن يستريح إليها كما تستريح كل بنية حية إلى الماء والظل

فهو إن لم يكن على طراز ابن الرومي، فملى طراز يتفق وإياه في الأساس، ويختلف حين يكون حب المقاد ممزوجاً بالفلسفة، والوعى الفني لما يحاطل نفسه من هذا الحب، وهو في هذا يتفق مع طبيعته، ويسير مع اتجاهه الخاص في حياته وتفكيره

ثم اسمه يتحدث عن «التشخيص والتصوير» في ابن الرومي: «الفريجة المطبوعة على إعطاء الحياة، مطبوعة كذلك على إعطاء الشخص، أو على ملكة التشخيص

ولكننا نحب أن نستثني هنا ذلك التشخيص الذي تلجئ إليه ضرورة اللغة وتسهيل التعبير، مع علم التكلم بما في كلامه من المجاز والفارقة، فقد يتكلم الشاعر أو غير الشاعر عن الشمس بضمير المؤنث وعن القمر بضمير المذكر، وقد يستند إليهما أفعال الأحياء العاقلة وغير العاقلة، ولكنه بمد تمير لفظي ليس وراءه تصور، وليس وراء التصور — إن كان — أثر من الشعور، ولا سيما الشعور المتبادل بين طرفين متعاطفين

وإنما المقصود بالتشخيص تلك الملكة الخالصة التي تستمد قدرتها من سمة الشعور حيناً أو من دقة الشعور حيناً آخر. فالشعور الواسع هو الذي يستوعب كل ما في الأرضين والسموات من الأجسام والماني فاذا هي حية كلها لأنها جزء من تلك الحياة المتنوعة الشاملة؛ والشعور الدقيق هو الذي يتأثر بكل مؤثر، ويهتز لكل هامة ولامة، فيستمد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير، وتوقفه تلك اليقظة، وهي هامة جامدة صفر من الماطفة خلو من الإرادة. وهذا الشعور الدقيق هو شعور ابن الرومي بكل ما حوله وسبب ما عنده من قدرة الأحياء وقدرة التشخيص: قدرة التشخيص التي هي ملكة مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين، وليست قدرة التشخيص التي هي حلية لفظية تلجئنا إليها لوازيم التعبير وبريحها إلينا تداعى الفكر وتسلسل الخواطر»

وعلى هذا النحو البارع يغني المقاد في تصوير ملكات ابن الرومي مستطرداً إلى بحث كامل في الملكات عامة، يبين صحيحها من زائفها، ويكشف عن وشائج هذا بذلك مستخلصاً

الصحيح من النظرات، محضاً خالصاً ويمثل هذه البراعة يحلل الأمثلة التي يستعرضها من شعر ابن الرومي، ويكشف عن نواحي القوة أو الضعف فيها؛ فاذا الرجل شاخص وراء هذا التحليل، تطالعك نفسه كالصفحة المبسوطة تحت المجهر الدقيق

هذه ومضات عن ذلك الكتاب الذي ظن أحد الكتاب عتداً أنه يمنحه أقصى حقوقه حيناً قال عنه: «لو تقدم به صاحبه إلى أية جامعة لمنحته الدكتوراه»

هـ : الدكتوراه

ومن يكون الأستاذة الذين يناقشون هذه الرسالة إذن ولمن يمنح «كرسي الأدب» في أية جامعة من جامعات الدنيا إذ ذاك؟
د حلوان، سيد قطب

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

- ٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من سفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والاطاللي مع تراجم الشعراء والكتاب)
- ٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحياة وبه روايتان تمثيلتان)
- ١٨ نباتات الزينة المشبية (على باحدى وتسعين صورة فنية)
- ١٥ Les Plantes Herbacées (على بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جيب للكاتب الشهيرة
وكتب الزراعة تطلب من
شركة البذور المصرية بيمان ابراهيم باشا